

مسألة خلق القرآن في الفكر الكلامي الإسلامي

The question of creating the Quran in Islamic thought

La question de la création du Coran dans la pensée islamique

1. د. للا عائشة عدنان، أستاذة التعليم العالي بجامعة القرويين معهد محمد السادس للقراءات والدراسات القرآنية الرباط المغرب.

Addenane lalla aïcha, Professeur d'enseignement supérieur à l'Université de Qarawine, Institut de lecture et d'études coraniques Mohammed VI, Rabat, Maroc.

تاريخ النشر: 2019/06/30

تاريخ الاستلام: 2018/06/01

الملخص:

لقد شاع في أواخر القرن الثاني، كون كلام الله مخلوق من قبل المعتزلة، على اعتبار أن هذه الفكرة لم يرد فيها نص من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا من الصحابة، وقد تحمل أحمد بن حنبل ألوان من العذاب بسبب رفضه للفكرة التي يروج لها المعتزلة، حتى قام الخليفة المتوكل بإنهاء هذه المحنة وأفرج عنه، في حين نجد الأشاعرة يعتبرون أن كلام الله تعالى نفسي قديم أزلي يتضمن الأوامر والنواهي وتتمثل أهداف هذه المقالة فيما يأتي:

* بيان وجه الخلاف بين كل من المعتزلة والحنابلة والأشاعرة حول مسألة خلق القرآن وإظهار السبب وراء القول بمسألة خلق القرآن، ثم إبراز وجهة نظر كل من المعتزلة والأشاعرة في قضية خلق القرآن.

في حين تتضمن الخلاصة أهم النتائج التي توصلنا إليها من خلال هذا المقال:

- إن المعتزلة هي أول فرقة كلامية تعتبر كلام الله تعالى مخلوق منفصل عنه، خلقه في غيره، والقرآن عندهم محدث، وأصل قولهم هذا مبني على تعطيل صفات الله تعالى.
 - إن مسألة قدم كلام الله ونفي الحرف والصوت عنه مما اختص به الأشاعرة عن باقي الطوائف الأخرى (قيد الدراسة)، فهم يقولون بأن كلام الله تعالى قديم أزلي، وأن كلامه تعالى عري عن الحرف والصوت، والقرآن عندهم هو حكاية أو عبارة عن كلام الله النفسي القائم بذاته، وبنوا قولهم هذا على موافقة المعتزلة في نفهم قيام الصفات الاختيارية بذاته تعالى.
- كلمات مفتاحية: الخلق الكلامي للقران، الشورى، الحنابلة، الأشاعرة، المعتزلة.

Abstract:

It was common in the late second century, that the word of god created according to Al mu'tazilah, considering that this idea did not appear in the prophetic text, nor in the Companions utterance, Ahmad ibn Hanbal suffered from different forms of torture and released him, until the caliph Al-mutawakil

ended this ordeal and was released, while the Ash'ara think that the words of God is subsists within himself (nafssi)and ancient (eternal), include Commands and prohibitions .

The objectives of this article are as follows:

* Statement of the difference between the Mu'tazilah and Hanbalis and poets on the issue of the creation of the Koran, And to show the reason behind the issue of the creation of the Koran, and then to highlight the views of both the Mu'tazila and the poet in the issue of the creation of the Koran.

The main findings from this article are:

• The Mu'tazilat is the first group of words that consider the word of God a separate creature, His creation in others, and the Koran they have updated, and the origin of their saying this is based on the disruption of the attributes of God Almighty.

• The question of offering the word of God and denying the letter and sound from him, which is exclusive to Ashayara from other communities (under study) , They say that the words of God is old Azali, and that the words of the Almighty nakedness of the letter and voice, The Koran is a tale or a word of God's psychological self-contained, and built this saying on the consent of the Mu'tazila in their denial of the optional attributes of the Almighty.

Keywords: The creation of the Quran, Ashura, Mu'tazila, Hanbala, Islamic thought

Le résumé:

C'était courant à la fin du deuxième siècle, Le fait que la Parole de Dieu est créée par les Mu'tazilah, Au motif que cette idée ne contenait pas de texte du Messenger d'Allah que la paix soit sur lui et non des compagnons, Ahmed bin Hanbal portait les couleurs du supplice à cause de son rejet de l'idée promue par les Mu'tazila, Jusqu'à ce que le calife al-Mutawakil a mis fin à cette épreuve et a été libéré, Alors que les poètes considèrent que les paroles de Dieu Tout-Puissant Mon ancien moi comprend les commandements éternels, les interdictions .

Les objectifs de cet article sont les suivants:

* Déclaration de la différence entre les Mu'tazilah et Hanbalis et les poètes sur la question de la création du Coran, Et pour montrer la raison derrière la question de la création du Coran, Et ensuite, souligner le point de vue du Mu'tazil et du poète dans le numéro de la création du Coran.

Les principales conclusions de cet article sont:

• Le Mu'tazilat est le premier groupe de mots qui considère la parole de Dieu comme une créature séparée.

Sa création dans d'autres et le Coran qu'ils ont mis à jour, et l'origine de leur affirmation est basée sur la perturbation des attributs de Dieu Tout-Puissant.

• La question d'offrir la parole de Dieu et de nier sa lettre et son son, ce qui est exclusif au poète des autres communautés (à l'étude) Ils disent que les paroles de Dieu sont le vieil Azali et que les paroles de la nudité toute-puissante de la lettre et de la voix

Le Coran est un conte ou une parole de la part de Dieu psychologique autonome, et il a été construit sur le consentement des Mu'tazila dans leur négation des attributs facultatifs du Tout-Puissant.

Mots clés: La création du Coran, Ashura, Mu'tazila, Hanbala, Pensée islamique

مقدمة:

انقسمت الأمة الإسلامية في فترة مبكرة من تاريخها إلى فرق وطوائف شتى، وكل فرق تدعي أنها الفرقة الناجية، لكن هذه الفرق اختلفت فيما بينها في العديد من مسائل الأصول فضلا عن الفروع الفقهية، ومما اختلفوا فيه "صفة الكلام" لله عز وجل، وهل القرآن مخلوق أم غير مخلوق؟. انتشرت فكرة مسألة خلق القرآن في عهد الخليفة المأمون Al-Ma'mūn من قبل المعتزلة التي تعتبر أن القرآن مخلوق وليس كلام الله عز وجل، أي إزالة التقديس عنه واعتباره كلاما قابلا للتأويل والتحديث والتفسير حسب مقتضيات العقل، واقتنع بهذا الرأي الخليفة المأمون، وطالب بنشر هذا الفكر وعزل أي قاض لا يؤمن به، فقد لاقى هذا الفكر معارضة واستهجانا كبيرا من بعض الأئمة مثل الإمام أحمد بن حنبل Ahmad Ibn Hanbal، الذي تحمل من أجل ذلك الكثير من التعذيب حتى قام الخليفة المتوكل بإنهاء هذه المحنة وأفرج عنه.

ولا يخفى على أي دارس لعلم الكلام ما لهذا الموضوع من أهمية في مجاله، إذ ترجع أهميته بالدرجة الأولى إلى أنه السبب في إطلاق، مصطلح علم الكلام على هذا العلم والمقصود بالكلام كلام الله عز وجل، وهذا يبين لها أهمية هذا الموضوع في هذا العلم.

لقد دفعتني إلى التفكير في اختيار هذا الموضوع عدة أسباب أذكر منها:

* إن "مسألة خلق القرآن - كغيرها من مسائل الاعتقاد - لا يقال إنها تجاوزت أبدا، بل هي باقية فطالب العلم يتعلم أدلة ذلك حتى يجادل بالقرآن من قال بخلقه"²، مما حدا بي إلى إنجاز هذه المقالة التي أحاول من خلالها معالجة قضية مفصلية تخص بنية الجدل الكلامي الإسلامي القديم.

- * الإسهام بهذا الموضوع المتواضع في إتمام الدراسات السابقة التي انصبت جهودها على دراسة علم الكلام.
- * الرغبة في الوقوف على آراء الفرق الإسلامية فيما يتعلق بمسألة خلق القرآن.
- * جدة الموضوع وجدواه، وعلاقته بالقرآن الكريم.
- تعتبر مسألة خلق القرآن من المواضيع التي استأثرت على امتداد فترات زمنية طويلة باهتمام الباحثين قديما وحديثا، وكلما وقع الاختلاف بين الفرق حول هذه المسألة، إلا وتنبثق إشكالات جديدة تجعل الباحث أمام مجموعة من الفرضيات تحتاج إلى البحث والتمحيص؛ ولذلك فإن الإشكالية التي تهدف هذه المقالة إلى الإجابة عنها هي: ما هي الدوافع التي أدت إلى القول بخلق القرآن؟.
- وتتفرع عن هذه الإشكالية جملة من الأسئلة المنهجية تسعى هذه المقالة إلى الإجابة عنها، تلك المتعلقة أساسا بخلق القرآن، ووجدنا أنفسنا أمام أسئلة من قبيل: من هي الفرقة التي كان لها السبق في القول بمسألة خلق القرآن؟ وما هي المحن التي تجرعا العلماء حول القضية؟ وما معنى خلق القرآن؟.
- ما دامت أهداف أي بحث ومقاصده بمثابة المنارات اللازمة لكل موضوع، يلزمنا تحديد جملة من الأهداف المنتظر تحقيقها من وراء هذه المقالة، وتتمثل هذه الأهداف فيما يأتي:
- * بيان وجه الخلاف بين كل من المعتزلة والحنابلة والأشاعرة حول مسألة خلق القرآن.
- * بيان السبب وراء القول بمسألة خلق القرآن.
- * بيان وجهة نظر كل من المعتزلة والأشاعرة في قضية خلق القرآن.
- اعتمدت في تحرير هذه المقالة على المنهجية الآتية:
- عزو الآيات القرآنية إلى اسم السورة ورقم الآية، وتجدر الإشارة هنا إلى أنني اعتمدت على القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.
- الحرص على تخريج الأحاديث النبوية من أمهات كتب السنة، مع الإشارة إلى الكتاب الذي ذكر فيه الحديث، وبابه، ورقمه، وراويته.
- عند ذكر الكتاب لأول مرة في الهامش أذكر جميع المعلومات المتعلقة به، كاسمه وصاحبه، مع الإشارة إلى من قدم له أو علق عليه أو ترجمه إن وجد، وبعدها أذكر دار النشر والطبعة

وسنة الطبع، والجزء إن وجد ثم الصفحة، وإن تكرر ذكره اقتصر فقط على ذكر اسمه واسم صاحبه، والجزء إن وجد والصفحة.

- الترجمة للأعلام والتعريف بالمصطلحات الغربية التي تحتاج إلى بيان، وأما الأعلام التي لم تعرف فيما أني لم أجد لها ترجمة داخل المعاجم التي تيسر لي الاشتغال عليها، أو أنها غنية عن التعريف ومشهورة عند الدارسين، وطبقت نفس المنهجية على المصطلحات.

إبان مطالعتي للكتب والرسائل الجامعية المتعلقة بالموضوع وجدت أن هناك العديد من الكتابات، وفي هذا السياق أجدني مضطرة للاقتصار على أهم الكتابات التي تمكنت من الاطلاع عليها بعد استفراغ الوسع في الطلب، والتي شكلت إضافات نوعية لمكتبة علم الكلام. ومن جملة الكتب التي اطلعت عليها ما يلي:

• خلق القرآن بين المعتزلة وأهل السنة، فخر الدين الرازي، تحقيق أحمد حجازي السقا، دار الجيل بيروت، طبع سنة 1992م.

• مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، أبو الحسن الأشعري، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، طبع بالمكتبة العصرية بيروت سنة 1995م.

• خلق أفعال العباد، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، طبع بدار المعارف السعودية الرياض.

اقتضت طبيعة هذه المقالة إلى تقسيمها إلى مقدمة وخمسة محاور أساسية وخاتمة. خصصت المقدمة للتعريف بالموضوع وبيان أهميته، ودواعي اختياره، وتحديد إشكاليته، والأهداف المنتظرة منه، وإبراز أهم الأعمال العلمية السابقة له، وبينت الخطة التي سلكتها فيه، ومنهجية دراسته.

المحور الأول متعلق بالتعريف بمسألة خلق القرآن؛ والمحور الثاني خصصته للحديث عن مسألة خلق القرآن عند المعتزلة؛ في حين تطرقت في المحور الثالث للمحات من تاريخ الصراع بين المعتزلة وخصومهم، أما المحور الرابع: عنوانه بقضية المحنة ونص المناظرة بين المعتزلة وأحمد بن حنبل، والمحور الخامس تناولت فيه بالدراسة الأشاعرة ومسألة خلق القرآن الكريم.

وأما الخاتمة فسجلت فيها أهم النتائج والخلاصات التي توصلت إليها.

1. مسألة خلق القرآن في الفكر الكلامي الإسلامي

1-1- التعريف بمسألة خلق القرآن :

كان الناس أمة واحدة، ودينهم قائما في خلافة أبي بكر وعمر، فلما استشهد قفل باب الفتنة؛ عمر رضي الله عنه وانكسر الباب، فقام رؤوس الشر على الشهيد عثمان حتى ذبح صبورا، وتفرقت الكلمة، وتمت وقعة الجمل، ثم وقعة صفين، فظهرت الخوارج، وكفرت سادة الصحابة، ثم ظهرت الروافض والنواصب، وفي آخر زمن الصحابة ظهرت القدرية، ثم ظهرت المعتزلة بالبصرة، والجهمية والمجسمة بخراسان في أثناء عصر التابعين مع ظهور السنة وأهلها إلى بعد المائتين³.

وظهرت مع هذه الفرق أقوال محدثة وأفكار متعددة، وأول ما ظهر من هذه الأقوال القول بتعطيل صفات الله تعالى، ومن هنا نفوا صفة الكلام عن الله عز وجل، وقالوا إن الله إذا أراد أن يتكلم خلق الكلام في محل ما، فيكون ذلك المحل هو المتكلم بكلام الله عز وجل لا الله سبحانه وتعالى، وقد قادهم قولهم هذا إلى القول بأن القرآن مخلوق⁴.

فظهر المأمون الخليفة - وكان ذكيا متكلمًا، له نظر في المعقول - فاستجلب كتب الأوائل، وعرب حكمة اليونان، وقام في ذلك وقعد، وخب ووضع، ورفعت الجهمية والمعتزلة رؤوسها، بل والشيعنة، فإنه كان كذلك، وآل به الحال أن حمل الأمة على القول بخلق القرآن، وامتنح العلماء، فلم يمهل، وهلك لعامة، وخلق بعده شرا وبلاء في الدين، فإن الأمة ما زالت على أن القرآن العظيم كلام الله تعالى ووحيه وتنزله، لا يعرفون غير ذلك، حتى نبغ لهم القول بأنه كلام الله مخلوق مجهول، وأنه إنما يضاف إلى الله تعالى إضافة تشريف، كبيت الله، وناقاة الله⁵.

يعتبر المتكلم الجعد بن درهم الخرساني Al Ja'd bin Dirham (ت 124هـ/742م) أول من تكلم في الصفات، وأول من قال بمسألة خلق القرآن. وقد نقل السفاريني الحنبلي عن شيخ الإسلام ابن تيمية (ت 728هـ/1328م) أنه قال: "أصل فشو البدع بعد القرون الثلاثة، وإن كان قد نبغ أصلها في أواخر عصر التابعين، قال: ثم أصل مقالة التعطيل للصفات إنما هو مأخوذ من تلامذة اليهود والمشركين وضلال الصابئين، فإن أول من حفظ عنه أنه قال هذه المقالة في الإسلام هو الجعد بن درهم، وأخذها عنه الجهم بن صفوان، وأظهرها فنسبت إليه⁶، وقيل أن جعد بن درهم أخذ "بدعته عن بيان بن سمعان وأخذها بيان عن طالوت ابن أخت لبيد بن أعصم، زوج ابنته، وأخذها لبيد بن أعصم الساحر الذي سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن يهودي باليمن"⁷.

ولما اشتهر أمر الجعد في المسلمين طلبه خالد بن عبد الله القسري⁸ وكان أنذاك أميرا على العراق، فخطب الناس يوم عيد الأضحى وكان آخر ما قال في خطبته "أيها الناس ضحوا تقبل الله

ضحياكم فإني مضح بالجعد بن درهم فإنه زعم أن الله لم يكلم موسى تكليما، ولم يتخذ إبراهيم خليلا
تعالى الله عما يقول الجعد علوا كبيرا ثم نزل فذبجه"⁹.

وقد تعددت أقوال الفرق في كلام الله تعالى، كما تعددت الفرق القائلة بخلق القرآن فذكر
الإمام أبو الحسن محمد بن إسماعيل الأشعري¹⁰: "أن المعتزلة والخوارج وأكثر الزيدية (شيعة) والمرجئة
وكثير من الرافضة قالوا إن القرآن كلام الله سبحانه وأنه مخلوق لله لم يكن ثم كان"¹¹

2-1- مسألة خلق القرآن عند المعتزلة:

كان ظهور المعتزلة تأسيسا لما أصبح يسمى بعلم الكلام الذي اختص بدراسة قضايا العقيدة،
فقد مثل المعتزلة بداية التفاعل مع السائد الديني المعرفي والفكري في البلاد المفتوحة وبداية تعديل تفسير
النص القرآني وفق أسس عقلية تحديدا، فكانت مدرستا النقل في الحجاز والعقل في العراق قد تمايزتا
لتحددا المقاربتين الأبرز للنص المقدس، وهكذا إلى جانب القضايا السياسية الساخنة المتعلقة، بقضية
الإمامة وتبرير ظهور الملك العضوض الحاكم المطلق برزت قضية (هامش ووظيفة العقل) في مقارنة النص
المقدس وتفسيرها إذ أراد المعتزلة أن يحلوا تناقضات النص المقدس - حسب زعمهم - بتأويل تلك
النصوص بما يحقق انسجامها مع مقتضيات البشرية، معتبرا العقل البشري في وضع أضعف من مقاربتها
أو القدرة على تفسيرها؛ وانطلاقا من هذه المعطيات وصل المعتزلة إلى نفي صفات الذات الإلهية،
فأبطلوها أن تشاركه في القَدَم، ومن هذا النفي كان اعتبارهم القرآن مخلوقا أي محدثا.

ومسألة خلق القرآن التي قال بها المعتزلة من أخطر القضايا المثارة في الجدل اللاهوتي الذي
شهده التاريخ الإسلامي في العصرين الأموي والعباسي، بل إن هذه القضية لا تزال تحتل موقعا راهنا في
السجال حول كيفية قراءة النص الديني، فقد أتى قول المعتزلة تطبيقا عمليا لاعتقاد العقل في تفسير
الشريعة الإسلامية، مستندين على نصوص دينية لدعم حججهم.

احتج أصحاب هذه الفرقة على حدوث كلام الله تعالى بأدلة منها ما هو نقلي ومنها ما هو عقلي
وفهما يأتي بيان ذلك:

1) -الدليل المنقول:

إن الغاية من وراء قول المعتزلة بمسألة خلق القرآن ترجع بالأساس إلى التأكيد على تفرد الذات
الإلهية بالقدم، فقد نزهوه أشد التنزيه، وجعلوه واحدا لا شريك له، وقولهم بأي شيء قديم هو مدعاة
للشرك والثنائية، الأمر الذي ألزمهما الإقرار بخلق القرآن حتى تفرد القدم لله سبحانه وتعالى، وقد ركن
المعتزلة في الاستدلال على أن القرآن الكريم مخلوق إلى ما استقوه من الكتاب المبين لبيان آرائهم.

ومن الشبه النقلية في ذلك ما يلي:

* تمسك المعتزلة بالقول إن القرآن ذكر، وكل ذكر محدث، ومنه قوله تعالى: ﴿لَعَلَّ اللَّهُ يُحَدِّثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾¹²، وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحَدِّثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾¹³، أي: "اتعاضاً واعتباراً مؤدياً بالآخرة إلى الاتقاء"¹⁴؛ وتمسكوا أيضا بقوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾¹⁵، وفي تفسير هذه الآية يقول الزمخشري (ت 538هـ): "وما يجدد لهم الله بوحيه موعظة وتذكيراً، إلا جددوا إعراضاً عنه وكفراً به"¹⁶، وفسرها أبو السعود بقوله: "مُحَدَّثٌ تَزِيلُهُ بِحَسَبِ اقْتِضَاءِ الْحِكْمَةِ"¹⁷، وفيها أيضا قال ابن تيمية: "علم أن الذكر منه محدث ومنه ما ليس بمحدث؛ لأن النكرة إذا وصفت ميز بها بين الموصوف وغيره كما لو قال: ما يأتي من رجل مسلم إلا أكرمه وما أكل إلا طعاما حالاً ونحو ذلك ويعلم أن المحدث في الآية ليس هو المخلوق الذي يقوله الجهي ولكنه الذي أنزل جديدا فإن الله كان ينزل القرآن شيئا بعد شيء فالمنزل أولا هو قديم بالنسبة إلى المنزل آخرا، وكل ما تقدم على غيره فهو قديم في لغة العرب"¹⁸.

وقوله تعالى: "مُحَدَّثٌ" في الأصل من الحُدُوثِ وهو كون الشيء بعد أن لم يكن والقرآن العظيم حين كان ينزل، كان كلما نزل منه شيء كان جديداً على الناس، لم يكونوا علموه من قبل، فهو مُحَدَّثٌ بالنسبة إلى الناس، فهو محدث إليهم حين يأتيهم¹⁹، ومنه ما رواه النسائي عن عاصم، عن أبي وائل، عن ابن مسعود، قال: كنا نسلم على النبي صلى الله عليه وسلم فيرد علينا السلام حتى قدمنا من أرض الحبشة، فسلمت عليه، فلم يرد عليا فأخذني ما قرب وما بعد فجلست حتى إذا قضى الصلاة، قال: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحَدِّثُ مِنْ أَمْرِهِ مَا يَشَاءُ، وَإِنَّهُ قَدْ أَحَدَثَ مِنْ أَمْرِهِ أَنْ لَا يُتَكَلَّمُ فِي الصَّلَاةِ»²⁰، وأمر الله: قوله وكلامه، وهو غير مخلوق، مُحَدَّثٌ بالنسبة للعباد، أي: جديداً عليهم، فالمحدث في الآيات السالفة الذكر ليس القصد منها أنه مخلوق، لكن الغاية من الخطاب أن كلام الله تعالى جديد على العباد.

ومما ورد في هذا السياق ما أورده البخاري قال: "قال سفيان، في تفسيره: إن كل شيء مخلوق، والقرآن ليس بمخلوق، وكلامه أعظم من خلقه، لأنه يقول للشيء: كن، فيكون، فلا يكون شيء أعظم مما يكون به الخلق، والقرآن كلام الله (...). وقال ابن عيينة ومعاذ بن معاذ والحجاج بن محمد ويزيد بن هارون وهاشم بن القاسم والربيع بن نافع الحلبي ومحمد بن يوسف وعاصم بن علي بن عاصم ويحيى بن يحيى، وأهل العلم: من قال: "القرآن مخلوق فهو كافر"، وقال محمد بن يوسف: من قال إن الله ليس على عرشه فهو كافر، ومن زعم أن الله لم يكلم موسى فهو كافر، وقيل لمحمد بن يوسف: أدركت الناس، فهل سمعت أحدا يقول: القرآن مخلوق؟ فقال: الشيطان يكلم بهذا، من يكلم بهذا فهو جهي، والجهي كافر وحديثي

أبو جعفر محمد بن عبد الله، حدثني محمد بن قدامة السلال الأنصاري، قال: سمعت وكيعا يقول: (لا تَسْتَخِفُّوا بِقَوْلِهِمْ: الْقُرْآنُ مَخْلُوقٌ، فَإِنَّهُ مِنْ شَرِّ قَوْلِهِمْ، وَأَيُّمَا يَذْهَبُونَ إِلَى التَّعْطِيلِ)²¹.

* ومما استند إليه المعتزلة في قولهم بخلق القرآن، قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾²²، أي: "وكان أمره الذي يقدره كائننا لا محالة، وواقعا لا محيد عنه ولا معدل، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن"²³؛ وقد رد شيخ الإسلام ابن تيمية على المعتزلة قولهم هذا بقوله: "المراد به المأمور به ليس المراد به أمره الذي هو كلامه وهذه الآية التي احتج بها هؤلاء تضمنت الشرع وهو الأمر والقدر (...). فأمره كلامه إذ لم ينزل إلينا الأفعال التي أمرنا بها وإنما أنزل القرآن وهذا كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ فَهَذَا الْأَمْرُ هُوَ كَلَامُهُ"²⁴؛ فلفظ إذا أضيف إلى الله تعالى يأتي على تفسيرين: الأول: يُزَادُ بِهِ الْمَصْدَرُ، كقوله تعالى: ﴿لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾²⁵ وهو غير مخلوق، وهذا يجمع على أوامر.

والثاني: يُزَادُ بِهِ الْمَفْعُولُ الَّذِي هُوَ الْمَأْمُورُ الْمَقْدُورُ، كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾²⁶ فالأمر هنا هو المأمور، وهذا يجمع على أمور وهو مخلوق²⁷.

(2) الدليل المعقول:

ومن الشبه العقلية التي استدلت بها المعتزلة لإثبات أن القرآن الكريم مخلوق ما يأتي:

- إن الأمر سواء قلنا بأنه عبارة عن الحروف والأصوات أو قلنا إنه معنى قائم بالنفس، فإنه يمتنع أن يكون قديما، وذلك لأنه ما كان في الأزل مأمورا ولا منهيًا، فلو حصل الأمر والنهي من غير حضور المأمور والمنهي، كان هذا سفها وجنونًا²⁸.
- إنه سبحانه أخبر بلفظ الماضي في مواضع كثيرة، فلو كان هذا الإخبار قديما أزليا لكان قد أخبر في الأزل عن شيء مشى قبله، وهذا يقتضي أن يكون الأزل مسبوقا بغيره وأن يكون كلام الله تعالى كذبا، ولما كان واحد منهما محالا علمنا أن هذا الإخبار يمتنع كونه أزليا.
- أجمعت الأمة على أن النسخ حق، والنسخ عبارة إما عن ارتفاع الحكم بعد ثبوته، وإما عند انتهائه، وأيا ما كان فهو يقتضي زوال ذلك الأمر وذلك الخطاب بعد ثبوته وكل ما زال بعد ثبوته لم يكن قديما، لأن ما ثبت قدمه استحالة عدمه²⁹.

ومن الواضح أن المحدث هو ما كان مسبقا بالعدم، ولم يكن كائنا ثم كان، فيثبت أن كلامه عز وجل مخلوق، إذ من الواضح أن كل محدث فهو ممكن الوجود لا يمكن أن يكون بلا علة فلا بد أن يكون مخلوقا بالضرورة.

في هذا المجال انطلق المعتزلة من مسألة صفات الله تعالى، فبعد أن قرروا نفي الصفات الزائدة عن الذات، تحولوا إلى النظر في ما ورد من هذه الصفات داخل النصوص الدينية عبر إخضاعها للتأويل العقلي.

فاعتبر المعتزلة أن القرآن يحوي نصوصا متنوعة ومختلفة، و(متعارضة) أحيانا ففيها الأوامر والنواهي والوعد والوعيد والكلام التشريعي والكلام الإخباري، والكلام الوضعي كما يجمع بين المسائل الروحية والدينية في الآن نفسه.

وإذا كان ليس جائزا تنسيب التناقض في القول إلى الله، يصبح من الضرورة اللجوء إلى النظر العقلي لتفسير ما ورد في القرآن، مما ينزع عنه الأبدية أو عدم الاجتهاد في نصوصه، لأن كلام الله محدث ومخلوق كما ذهب إلى ذلك القاضي عبد الجبار لما قال: "إن القرآن كلام الله ووحيه، وهو مخلوق محدث، أنزله الله على نبيه ليكون علما ودالا على نبوته، وجعله دلالة لنا على الأحكام لنرجع إليه الحلال والحرام، واستوجب منا بذلك الحمد والشكر والتجميد والتقديس (...). القرآن يتقدم بعضه على بعض، وما هذا سبيله لا يجوز أن يكون قديما، إذ القديم هو ما لا يتقدمه غيره (...). وما يكون بهذا الوصف، كيف يجوز أن يكون قديما"³⁰.

لم يكتف المعتزلة بتجاوز المؤلف في الجدل اللاهوتي بقولهم خلق القرآن، بل تجاوزوا ذلك إلى نفي صفة الإعجاز عنه، وهو ما نُظر إليه بوصفه مسأً بمقدسات أجمع عليها المسلمون، وكانت مصدر فخرهم وتميزهم بأن كتابهم العظيم يصعب الإتيان به من حيث النظم والبلاغة والفصاحة في هذا المجال، كما في خلق القرآن كان المعتزلة منطقيين مع أنفسهم وأمناء لمنهجهم العقلاني في النظر إلى الأمور وعلى الأخص منها النص الديني، برفض كل ما لا يقبله العقل مهما أعدلت عليه صفات القدسية.

حرص المعتزلة على فتح معبر وجسر بين الكلام الإلهي والعقل الإنساني، ولذلك أصروا على أن اللغة نتاج بشري، وعلى مواضعاتها وطرائقها نزل الكلام الإلهي، وكان من الطبيعي بعد ذلك كله أن يكون تحديدهم للإعجاز قائما على أساس اكتشاف قوانين عامة يمكن للعقل البشري تقبلها والتسليم بها، وقد ذهب الجبائي³¹ إلى أن القرآن ليس معجزا لاختلافه من حيث الشكل أو النوع أو الجنس عن النصوص الأخرى في الثقافة، لأن تغاير الشكل لا يعني تفوقا أو امتيازاً، لأن الفصاحة التي هي سر الإعجاز عند أبي

هاشم ظاهرة يمكن تلمسها في التركيب اللغوي سواء كان هذا التركيب في الشعر أم في الخطابة أم في الرسائل، ولا بد من حسن المعنى وجزالة اللفظ لاعتبار النص فصيحاً³².

لذلك شكلت قضية خلق القرآن عند المعتزلة جوهر نظريتهم في (اللاهوت الإسلامي) وفي الجدل الذي انخرطوا فيه أو فرض عليهم حتى أنهم لم يختلفوا عن خصومهم في تكفير من خالفهم الرأي في هذا المجال، وشكلت هذه المسألة حجماً كبيراً عندما تم فرض عقيدتهم على الدولة الإسلامية في عهد الخليفة المأمون كما ذكرنا سابقاً.

واعتبر البعض أن المعتزلة ستؤسس في قضية خلق القرآن لوجهة ثورية جديدة في الكلام إذا أردنا استخدام مصطلحات حديثة في قراءة النص الديني الإسلامي، تشكل اليوم محورياً مركزياً في الصراع السياسي على الإسلام وعلى كيفية توظيفه بما يخدم التقدم والتطور أو بما يكرس التخلف والتطرف والإرهاب³³.

2- لمحات من تاريخ الصراع بين المعتزلة وخصومهم:

بدأ الخلاف في مسألة خلق القرآن الكريم بشدة بين المعتزلة وخصومهم، فذهب المعتزلة إلى أن القرآن الكريم مخلوق، في حين ذهب خصومهم إلى أنه قديم وغير مخلوق³⁴ لأنه كلام الله عز وجل. وكان المأمون العباسي قد تبني رأي المعتزلة ووقف إلى جانبهم وواجه القائلين بقدم القرآن الكريم وكونه ليس بمخلوق، وأصدر الأوامر بتقوية المعتزلة والوقوف في وجه خصومهم، وكان من جملة ما قام به ما كتبه إلى عامله إسحاق بن إبراهيم العبارة التالية: "فاجمع من حضرته من القضاة، واقراً عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك، فابدأ بامتحنهم فيما يقولون، وتكشيفهم عما يعتقدون في خلق القرآن وإحداثه، وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين في عمله، ولا واثق فيمن قلده الله واستحفظه أمور رعيته بمن لا يوثق بدينه"³⁵ وخلص توحيداً ويقينه، فإذا أقرؤا بذلك ووافقوا أمير المؤمنين فيه، وكانوا على سبيل الهدى والنجاة فمرهم بنص من يحضرهم من الشهود على الناس، ومسألهم على علمهم في القرآن وترك إثبات شهادة من لم يقر أنه مخلوق محدث³⁶.

ومن ثم استمر الضغط على خصوم المعتزلة في عهد المعتصم، والوفاق العباسيين وقد كان القاضي أحمد بن داود المعتزلي وهو أحد أصحاب واصل بن عطاء³⁷ ومن خلاله صار إلى الاعتزال، قد ولي القضاء في عهد المعتصم³⁸ والوفاق³⁹ يمتحن الناس من العلماء وغيرهم بخلق القرآن ويحملهم على القول به، وفيه قال الدار قطني: "وهو الذي كان يمتحن العلماء في أيامهما ويدعو إلى القول بخلق القرآن"⁴⁰.

وقد أخرج أبو بكر الخطيب بإسناده عن محمد عرفة أنه قال: "سنة أربع وثلاثين ومائتين، فيها: أشخص المتوكل الفقهاء والمحدثين، وكان فيهم مصعب الزبيري، وإسحاق بن أبي إسرائيل، وإبراهيم بن عبد الله الهروي، وعبد الله وعثمان ابنا محمد بن أبي شيبة وكانا من حفاظ الناس، فقسمت بينهم الجوائز، وأجريت عليهم الأرزاق، وأمرهم المتوكل أن يجلسوا للناس، وأن يحدثوا بالأحاديث التي فيها الرد على المعتزلة والجهمية وأن يحدثوا بالأحاديث في الرؤية، فجلس عثمان بن أبي شيبة في مدينة المنصور، ووضع له منبر، فاجتمع عليه نحو من ثلاثين ألفا. وجلس أبو بكر بن أبي شيبة في مجلس الرصافة، فاجتمع عليه نحو من ثلاثين ألفاً"⁴¹.

واستمر الصراع بشدة وضراوة حتى آل الأمر إلى العمل على تصفية المعتزلة جسدياً إلى أن أدى الأمر إلى انقراضهم، ومما يبين هذا الأمر ما ذكره ابن الجوزي شارحاً ما جرى في القرن الخامس الهجري: "وفي سنة ثمان وأربعمائة استتاب القادر بالله أمير المؤمنين فقهاء المعتزلة الحنفية، فأظهروا الرجوع، وتبرءوا من الاعتزال، ثم نهاهم عن الكلام والتدريس والمناظرة في الاعتزال، والرفض والمقالات المخالفة للإسلام، وأخذ خطوطهم بذلك وأنهم متى خالفوه حل بهم من النكال والعقوبة ما يتعظ به أمثالهم، وامتلئ يمين الدولة وأمين الملة أبو القاسم محمود أمر أمير المؤمنين، واستن بسننه في أعماله التي استخلفه عليها من خراسان وغيرها في قتل المعتزلة والرافضة، والإسماعيلية والقرامطة والجهمية والمشبهة وصلبهم وحبسهم ونفاهم، وأمر بلعنهم على منابر المسلمين، وإبعاد كل طائفة من أهل البدع وطردهم عن ديارهم، وصار ذلك سنة في الإسلام"⁴².

ولقد انبرى للرد على المعتزلة مجموعة من العلماء منهم فخر الدين الرازي الذي لخص رده عن هذه الشبهات السالفة الذكر فيما هو سمعي وما هو عقلي:

❖ الشبه السمعية:

فالجواب عنها شيء واحد: وهو أن تصرف كل تلك الوجوه إلى هذه الحروف والأصوات، فإنها معترفون بأنها محدثة، وعند المعتزلة القرآن ليس إلا ما تركب عن هذه الحروف والأصوات، فكانت الدلائل التي ذكروها دالة على حدوث هذه الحروف والأصوات ونحن لا ننازع في ذلك، وإنما ندعي قدم القرآن بمعنى آخر فكانت كل هذه الشبه ساقطة عن محل النزاع.

❖ الشبه العقلية:

فالجواب عن الشبهة الأولى: فهو أنها معارضة بالقدرة فإنها صفة تقتضي صحة الفعل، ثم إنها كانت ثابتة في الأزل مع أن الفعل كان ممتنعاً، فلم لا يجوز أن يقال، الأمر عبارة عن الصفة المقتضية لطلب الفعل، ثم إنها كانت ثابتة الأزل، مع أن طلب الفعل كان في الأزل محالاً؟
والجواب عن الشبهة الثانية: أنه تعالى كان عالماً في الأزل بأنه سيخلق العالم، ثم لما خلقه في الأزل صار العلم متعلقاً بأنه قد خلقه في الماضي، ولما لم يقتض هذا الحدث هذا العالم وتغيره، فكذا في الخبر.

والجواب عن الشبهة الثالثة: هو أن قدرته تعالى كانت متعلقة من الأزل إلى الأبد بإيجاد العالم، ولا أوجد العالم لم يبق ذلك التعليق، لأن إيجاد الموجود محال، ولما زال هذا التعليق ولم تقتض ذلك حدوث قدرة الله تعالى فكذا القول في الكلام.
والجواب عن الشبهة الرابعة: أن قدرة الله تعالى لها صلاحية التعلق بإيجاد كل الممكنات، ثم إنها تعلقت بإيجاد البعض بإيجاد البعض دون البعض، مع أن هذه القدرة قديمة، وإذا عُقِل ذلك في القدرة، فلم لا يعقل مثله في الكلام⁴³

2-1- قضية المحنة ونص المناظرة بين المعتزلة وأحمد بن حنبل:

أتيت إلى باب المعتصم وإذا الناس قد ازدحموا على بابه كيوم العيد، فدخلت الدار فرأيت بساطاً مبسوطاً وكرسیاً مطروحاً، فوقففت بإزاء الكرسي، فبينما أنا قائم فإذا المعتصم قد أقبل، فجلس على الكرسي، ونزع نعله من رجله، ووضع رجلاً على رجل، ثم قال: يحضر أحمد بن حنبل؛ فأحضر، فلما وقف بين يديه وسلم عليه قال له: يا أحمد تكلم ولا تخف فقال أحمد: والله يا أمير المؤمنين لقد دخلت عليك وما في قلبي مثقال حبة من الفزع فقال له المعتصم: ما تقول في القرآن؟ فقال: كلام الله، قديم غير مخلوق، قال الله عز وجل: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾⁴⁴ فقال له: عندك حجة غير هذا؟ فقال أحمد: نعم يا أمير المؤمنين، قول الله عز وجل: ﴿يَس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾⁴⁵، ولم يقل: يس والقرآن المخلوق فقال المعتصم: احبسوه فحبس وتفرق الناس، فلما أصبحت قصدتُ الباب، فأدخل الناس فأدخلت معهم، فأقبل المعتصم وجلس على كرسيه، فقال: هاتوا أحمد بن حنبل؛ فجيء به، فلما أن وقف بين يديه قال له المعتصم: كيف كنت يا أحمد في محبسك البارحة؟ فقال: بخير والحمد لله، إلا أنني رأيت يا أمير المؤمنين في محبسك أمراً عجباً قال له: وما رأيت؟ قال: قمتُ في نصف الليل فتوضأت للصلاة، واصلت ركعتين فقرأت في ركعة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾⁴⁶، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾⁴⁷، وفي الثانية ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾⁴⁸ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾⁴⁹، ثم جلست وتشهدت وسلمت، ثم قمت فكبرت

وقرأت ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾⁵⁰، وأردت أن أقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾⁵¹، فلم أقدر، ثم اجتهدت أن أقرأ غير ذلك من القرآن فلم أقدر، فمددت عيني في زاوية السجن، فإذا القرآن مسجىً ميتاً، فغسلته وكفنته وصليت عليه ودفنته! فقال له: ويلك يا أحمد، والقرآن يموت؟ فقال له أحمد: فأنت كذا تقول إنه مخلوق، وكل مخلوق يموت فقال المعتصم: قهرنا أحمد، قهرنا أحمد فقال ابن أبي دؤاد وبشر المريسي (كبار شيوخ المعتزلة): اقتله، حتى نستريح منه فقال: إني قد عاهدت الله أن لا أقتله بسيف ولا أمر بقتله بسيف فقال له ابن أبي دؤاد: اضربه بالسياط؛ فقال: نعم ثم قال: أحضروا الجلادين؛ فأحضروا فقال المعتصم لواحد منهم: بكم سوط تقتله؟ فقال: بعشرة يا أمير المؤمنين؛ فقال: خذه إليك قال سليمان السجري: فأخرج أحمد بن حنبل من ثيابه، وائتزر بمئزر من الصوف، وشدَّ في يديه حبلان جديداً، وأخذ السوط في يده، وقال: اضربه يا أمير المؤمنين؟ فقال المعتصم: اضرب؛ فضربه سوطاً فقال أحمد: الحمد لله، وضربه ثانياً، فقال: ما شاء الله كان فضربه ثالثاً: فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم فتقدم إليه ابن أبي دؤاد وقال له: يا أحمد، قل في أذني إن القرآن مخلوق حتى أخلصك من يد الخليفة فقال له أحمد: يا ابن أبي دؤاد، قل في أذني إن القرآن كلام الله غير مخلوق، حتى أخلصك من عذاب الله عز وجل.

وقد كان موقف الإمام أحمد بن حنبل مفخرة للعلماء في زمانه ومن بعده طاول بها مكانة كبار الصحابة والشهداء والصدّيقين، مما جعل علماء مشهوداً لهم بالعلم والصلاح يمدحونه، ومن ذلك: قال الإمام علي بن المديني وهو أحد شيوخ البخاري "إن الله أعز هذا الدين برجلين، أبو بكر الصديق يوم الردة و أحمد بن حنبل يوم المحنة.

وقال أحمد بن إبراهيم الدورقي من سمعتموه يذكر أحمد بن حنبل بسوء فاتهموه على

الإسلام.

قال سيار: لقد قام هذا الرجل - يعني الإمام أحمد - مقام النبيين والصدّيقين.

وقال عنه بشر بن الحارث: لو لا هذا الرجل - يعني الإمام أحمد - لكان العار علينا إلى يوم

القيامة.

وقال أبو عمر بن النحاس - وذكر أحمد يوماً - فقال: رحمه الله في الدين ما كان أبصره، وعن الدنيا ما كان أصبره، وفي الزهد ما كان أخبره، وبالصالحين ما كان ألحقه، وبالماضين ما كان أشبهه، عرضت عليه الدنيا فأبأها، والبدع فنفاها.

وقال الميموني: قال لي علي بن المديني - بعد ما امتحن أحمد - يا ميمون ما قام أحد في الإسلام

ما قام أحمد بن حنبل. فعجبت من هذا عجباً شديداً وذهبت إلى أبي عبيد القاسم بن سلام فحكيت له

مقالة علي بن المديني فقال: صدق، إن أبا بكر وجد يوم الردة أنصاراً وأعواناً، وإن أحمد بن حنبل لم يكن له أنصار ولا أعوان.

قال أبو بكر الأثرم: كانوا أصحابنا يرون مقام أبي عبد الله - أحمد بن حنبل - في المحنة، كمقام أبي بكر الصديق رضي الله عنه، في الردة.

قال بشر بن الحارث: محنة أحمد في وحدته وغربته في وقته، مثل محنة أبي بكر الصديق في وحدته وغربته في وقته.

قال أبو زرعة: لما أمتحن الإمام أحمد أرتفع ذكره في الآفاق. قال بشر بن الحارث لما سؤل عن الإمام أحمد: أنا أسأل عن أحمد؟! إن أحمد أدخل الكبر فخرج ذهباً أحمر. قال ميمون بن الأصبغ: لما ضرب الجلاد سوطاً قال الإمام أحمد: بسم الله ولما ضرب الثاني قال أحمد: لا حول ولا قوة إلا بالله فلما ضرب الثالث قال: القرآن كلام الله غير مخلوق فلما ضرب الرابع قال: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾⁵² فضربه 29 سوطاً.

قال عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل: كنت كثيراً أسمع والدي يقول: رحم الله أبا الهيثم، غفر الله لأبي الهيثم، عفى الله عن أبا الهيثم فقلت: يا أباي من أبو الهيثم؟ فقال: ما تعرفه؟ قلت: لا قال: أبو الهيثم في اليوم الذي خرجت فيه للسياط ومدت يداي للجلد، إذا أنا بإنسان يجذب ثوبي من ورائي ويقول لي: تعرفني؟ قلت: لا قال: أنا أبو هيثم اللص ومكتوب في ديوان أمير المؤمنين أني ضربت 18 ألف سوط بالتفاريق، وصبرت على ذلك في طاعة الشيطان لأجل الدنيا، فالصبر في طاعة الرحمن لأجل الدين.

وفي كتاب طبقات الشافعية الكبرى للإمام السبكي الشافعي: قال المزني: أبو بكر يوم الردة، وعمر يوم السقيفة، وعثمان يوم الدار، وعلى يوم صفين، وأحمد بن حنبل يوم المحنة. قال أبو مسهر: وقد قيل له: هل تعرف أحدا يحفظ على هذه الأمة أمر دينها؟ قال: لا أعلمه إلا شاب في ناحية المشرق، يعني: أحمد بن حنبل. وعن إسحاق: أحمد حجة بين الله وخلق⁵³.

2-2. الأشاعرة ومسألة خلق القرآن الكريم:

كما هو معروف عن الإمام أبي الحسن الأشعري إمام الأشاعرة، أنه كان معتزلياً ثم أعلن تركه لنهج الاعتزال وأنه على نهج أهل السنة، وصرح بأنه على طريقة الإمام أحمد بن حنبل، وتبعه جماعة ممن كان يتبع أحمد بن حنبل، وهم عدد كبير جدا من علماء المسلمين عبر التاريخ، ولكن لم يقبله عدد ضخم جدا أيضا من الحنابلة واعتبروه خارجا عن طريقة أهل السنة والجماعة، وكان من أعم أسباب ذلك أن أسلوبه في تناول المسائل العقائدية كان مختلفا إلى حد كبير عن طريقة أحمد بن حنبل وأتباعه، بل رأيه

يختلف عنهم تماما، ومن أبرز تلك المسائل نظريته المتعلقة بخلق القرآن الكريم، فالقرآن الكريم عند أحمد بن حنبل وأتباعه هي نفس الألفاظ والعبارات التي أنزلها الله عز وجل على نبيه صلى الله عليه وسلم بما يتضمنه من المعاني، ولكن أبا الحسن الأشعري ذهب إلى أن كلام الله عز وجل ومنه القرآن الكريم حقيقته عبارة عن الكلام النفسي، ومن ثم ذهب إلى أن الألفاظ والعبارات مخلوقة وليست بقديمة، وأن ما يكون قديما وليس بمخلوق هو الكلام النفسي كما تقدم⁵⁴.

وهذا يتضح أن أبا الحسن الأشعري يختلف في عقيدته مع أحمد بن حنبل والحنابلة اختلافا تاما، فألفاظ القرآن الكريم وعباراته قديمة وليست مخلوقة عند الحنابلة، وهي حادثة ومخلوقة عند أبي الحسن الأشعري.

وقسم أبو الحسن الأشعري كلام الله تعالى إلى قسمين:

. كلام الله تعالى نفسي قديم أزلي يتضمن الأوامر والنواهي والاستخبار.

. كلام الله تعالى لفظ حادث هو عبارة عن أصوات وحروف دالة على الكلام النفسي⁵⁵.

فالنفسى يتضمن الأوامر والنواهي والاستخبار، وهي موجودة أزلية قبل وجود المأمور⁵⁶، فالخطاب الموجه من الله لعباده بحديه، سواء كان أمرا أو نهيا، هو خطاب أزلي حسب الأشاعرة، يأخذ ذلك الخطاب دلالة الحدوث لأنه يكون على لسان الملائكة والأنبياء والرسل، أما في معناه فإن وجوده يسبق الموجود، وهذا ما حاول التأكيد عليه الجويني في قوله: "الكلام هو القول القائم في النفس والذي تدل عليه الإشارات والعبارات وهذا هو الفكر الذي يدور في النفس فهو ليس تلك الأصوات والحروف ولكنها دالة عليه، وعلى هذا فالكلام الحقيقي هو الذي يدور في النفس، وأما العبادات والألفاظ فتسعي كلاما جوازا لأنها ليست بكلام حقيقة بل عبارة عنه"⁵⁷.

من خلال هذا النص يتبين أن الأشاعرة وقفت موقفا وسطا بين القائلين بقدم القرآن أمثال أحمد بن حنبل، والقائلين بحدوثه أمثال المعتزلة، فكان هذا تعبير عن النزعة التوسيطية التي انتابت الفكر الأشعري، وهذه الوسطية تؤدي إلى نتيجة مفادها أن الأشاعرة حتى وإن اختلفت عن المذهب الاعتزالي ظاهريا في القول بقدم القرآن، إلا أنها أثبتت ذلك باطنيا.

وهذا يتضح أن أبا الحسن الأشعري يوافق المعتزلة وسائر من ليس على نهج الحنابلة بأن ألفاظ القرآن الكريم وحروفه حادثة ومخلوقة وليست بقديمة، ولذا حكم بكفره بعض علماء الحنابلة، ولذا فهو وأتباعه على قواعدهم كفار تستباح دماؤهم، بل حتى الحنابلة القائلين بأن القرآن الكريم وألفاظه

وحروفه غير مخلوقة كفار إذا شكوا في كفر القائل بخلق القرآن أو حروفه أو لفظه بالقرآن الكريم أو لم يقولوا بكفره⁵⁸، ولكن هذا القول لا يقنع خاصة إذا عدنا لتراث الأشعري المسألة⁵⁹.

وأما القول بالكلام النفسي وقدمه فهو موضوع آخر، على أنه تقدم أن الحنابلة ينسبون إلى الباري تعالى أنه يتكلم بالحرف والصوت وأن صوته يشبه الصواعق أو جر السلسلة أو غير ذلك، وتلك الأصوات عندهم هي كلام الله تعالى وهي قديمة، ورفض ذلك الأشاعرة، بل بعضهم كفر الحنابلة بسبب ذلك، ولهذا وقعت الفتن قديما على مدى سنين مديدة بين الحنابلة والأشاعرة وكفر بعضهم بعضا.

فالأشاعرة يثبتون أن الله سبحانه وتعالى متكلم وله كلام، والدليل على ذلك إرساله للرسول وتكليف العباد بالأمر والنهي والوعد والوعيد، وهذا دليل على أنه أمر ناه وأن له كلام وعدم الكلام معناه الخرس والسكوت وهي نقائص يتنزه الله تعالى عنها⁶⁰.

وهذا يكون أبو الحسن الأشعري قد سلك مسلكا خاصا به إذ اعتبر "القرآن كلام الله غير مغير ولا مخلوق ولا حادث ولا مبتدع، فأما الحروف المقطعة و الألوان والأجسام والأصوات فمخلوقات مخترعات"⁶¹.

خاتمة:

بعد هذه الرحلة العلمية مع موضوع له مكانة في علم الكلام نخلص إلى مجموعة من النتائج

وهي كالآتي:

تميز القرن الثالث الهجري بكثرة الفتن وبروز عدد كبير من العلماء والفقهاء، الذين اشتغلوا بالتصنيف في علوم كثيرة أهمها الحديث والعقيدة، ومن بين المسائل التي شغلتهم وأكثرها التصنيف في بيانها والرد قائلها مسألة خلق القرآن، التي اعتبرت من المسائل الدقيقة والمتشعبة، حيث افتقرت فيها الفرق والطوائف طرائق قدادا، وقد صاحبت مسألة القول بخلق القرآن محنة شديدة مست أهل السنة الذين انقسموا إلى قسمين:

* قسم أجاب إلى القول بخلق القرآن خشية السيف.

* وقسم ثان صبروا على المحنة وتحملوا أذى الخلفاء.

● إن المعتزلة هي أول فرقة كلامية تعتبر كلام الله تعالى مخلوق منفصل عنه، خلقه في غيره،

والقرآن عندهم محدث، وأصل قولهم هذا مبني على تعطيل صفات الله تعالى.

• لقد أثبتت على هامش مسألة خلق القرآن مسائل كلامية كثيرة ذات في تعقيدها وتشعبها، ومن بين هذه المسائل:

* مسألة الوقف في القرآن أي السكوت عن قول القرآن مخلوق أو غير مخلوق.

* مسألة اللفظ التي تستر بها المعتزلة والجهمية بعد المحنة، وقالوا: ألفاظ القرآن مخلوقة وهؤلاء هو اللفظة النافية، التي اشدت إنكار أهل السنة عليهم ودموا قولهم وكفروا من يعرف الكلام منهم.

• إن مسألة قدم كلام الله ونفي الحرف والصوت عنه مما اختص به الأشاعرة عن باقي الطوائف الأخرى (قيد الدراسة)، فهم يقولون بأن كلام الله تعالى قديم أزلي، وأن كلامه تعالى عري عن الحرف والصوت، والقرآن عندهم هو حكاية أو عبارة عن كلام الله النفسي القائم بذاته، وبنوا قولهم هذا على موافقة المعتزلة في نفهم قيام الصفات الاختيارية بذاته تعالى.
- الهوامش:

¹ - يقول فخر الدين الرازي (ت 606هـ): "اعلم أن الأمة متفقة على إطلاق لفظ المتكلم على الله تعالى، إلا أن هذا الاتفاق ليس إلا في اللفظ، وأما المعنى فغير متفق عليه. يُنظر: خلق القرآن بين المعتزلة وأهل السنة، فخر الدين الرازي، تحقيق أحمد حجازي السقا، دار الجيل بيروت، ط1، 1992م، ص:58.

² - الإمام أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي الطحاوي، شرح العقيدة الطحاوية، المسمى بـ "إتحاف السائل بما في الطحاوية من مسائل"، شرحها الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، ج25، ص:12.

³ - سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج11، ص:236.

⁴ - بن درهم، التميمي محمد بن خليفة، مقالة التعطيل والجعد، مكتبة أضواء السلف الرياض، ط1، 1997م، ص:78.

⁵ - سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج11، ص:237.

⁶ - ، شمس الدين، أبو العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي (ت 1188هـ، لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدررة المضية في عقد الفرقة المرضية)، مؤسسة الخافقين ومكتبتها دمشق، ط2، 1402هـ/1982م، ج1، ص:23.

7 - ، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت 774هـ)، البداية والنهاية، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، ط1، 1408 هـ / 1988 م، ج9، ص: 282.

8 - خالد القسري (66 - 126 هـ = 686 - 743 م) هو خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسد القسري، من بجيلة، أبو الهيثم: أمير العراقيين، وأحد خطباء العرب وأجوادهم، يماني الأصل، من أهل دمشق، ولي مكة سنة 89هـ للوليد بن عبد الملك، ثم ولاة هشام العراقيين (الكوفة والبصرة) سنة 105 هـ فأقام بالكوفة. وطالت مدته إلى أن عزله هشام سنة 120هـ وولي مكانه يوسف بن عمر الثقفي وأمره أن يحاسبه، فسجنه يوسف وعذبه بالحيرة، ثم قتله في أيام الوليد بن يزيد. وكان خالد يرمى بالزندقة، وللفرزدق هجاء فيه. يُنظر: الأعلام، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (ت 1396هـ)، دار العلم للملايين، ط15، 2002 م، ج2، ص: 296-297.

9 - محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت 751هـ)، الصواعق المرسلية في الرد على الجهمية والمعتلة، تحقيق علي بن محمد الدخيل الله، دار العاصمة، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 1408هـ، ج3، ص: 1071.

10 - أبو الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى ابن أمير البصرة بلال بن أبي بردة ابن صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أبي موسى عبد الله بن قيس بن حضار الأشعري، اليماني، البصري، مولده: سنة 260هـ، وقيل: بل ولد سنة 270هـ، من مؤلفاته: كتاب (الموجز) ، وكتاب (خلق الأعمال) ، وكتاب (الصفات) ، وهو كبير، تكلم فيه على أصناف المعتزلة والجهمية، وكتاب (الرؤية بالأبصار) ، وكتاب (الخاص والعام) ، وكتاب (الرد على المجسمة) ، وكتاب (إيضاح البرهان) ، وكتاب (اللمع في الرد على أهل البدع) ، وكتاب (الشرح والتفصيل) ، وكتاب (النقض على الجبائي)، وكتاب (النقض على البلخي... مات ببغداد سنة 324هـ. يُنظر سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج15، ص: 85 وما بعدها.

11 - أبو الحسن الأشعري، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية بيروت، 1995م، ج2، ص: 256.

12 - سورة الطلاق، الآية: 1.

13 - سورة طه، الآية: 113.

- 14 - أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (ت 982هـ)، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، دار إحياء التراث العربي بيروت، ج6، ص: 44.
- 15 - سورة الأنبياء، الآية: 2.
- 16 - أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت 538هـ)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي بيروت، ط3، 1407 هـ، ط3، ص: 299.
- 17 - إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود، ج6، ص: 54.
- 18 - مجموع الفتاوى، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (ت 728هـ)، تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، 1416هـ/1995م، ج12، ص: 522.
- 19 - <http://eldorar.net/science/article/1008> بتاريخ: 2018 /02/07
- 20 - المجتبي من السنن = السنن الصغرى للنسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (ت 303هـ)، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية حلب، ط2، 1406/1986م، ج3، ص: 19، رقم الحديث 1221.
- 21 - محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، خلق أفعال العباد، أبو عبد الله (ت 256هـ)، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، دار المعارف السعودية الرياض، ص: 36-37.
- 22 - سورة الأحزاب، الآية: 38.
- 23 - أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت 774هـ)، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، 1420هـ/1999م، ج6، ص: 427.
- 24 - مجموع الفتاوى، ابن تيمية، ج8، ص: 412.
- 25 - سورة الأعراف، الآية: 54.
- 26 - سورة الأحزاب، الآية: 38.
- 27 - <http://eldorar.net/science/article/1008> بتاريخ: 2018 /02/07
- 28 - خلق القرآن، الرازي، ص: 63

29 - نفسه، ص: 64.

30 - الأصول الخمسة، القاضي عبد الجبار، ص: 527.

31 - إنما يكون الكلام فصيحاً جزالة لفظه، وحسن معناه، ولا بد من اعتبار الأمرين، لأنه لو كان جزل اللفظ ركيك المعنى لم يعد فصيحاً، فإذاً يجب أن يكون جامعاً لهذين الأمرين، وليس فصاحة الكلام بأن يكون لم نظم مخصوص لأن الخطيب عندهم قد يكون أفصح من الشاعر، والنظم مختلف، إذا أريد بالنظم اختلاف الطريقة، وقد يكون النظم واحداً وتقع المزية في الفصاحة فالمعتبر ما ذكرناه، لأنه الذي يتبين في كل نظم وطريقة. يُنظر: المغني في أبواب التوحيد، القاضي عبد الجبار، ج16، ص: 197.

32 - نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص دراسة في علوم القرآن، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء المغرب، ط1، 2014م، ص: 153.

33 - يُنظر في هذه المسألة إلى الكتب الآتية: تاريخية الفكر العربي الإسلامي، محمد أركون؛ وكتاب الاجتهاد إلى نقد العقل الإسلامي، محمد أركون؛ الإسلام بين الرسالة والتاريخ، عبد المجيد الشرفي؛ وكتاب القرآن والكتاب، محمد شحور....

34 - كان أبو معاذ التومني يوافق زهيراً في أكثر قوله، ويخالفه في القرآن، ويزعم أن كلام الله: حدث غير محدث ولا مخلوق، وهو قائم بالله لا في مكان، وكذلك قوله في محبته وإرادته أيضاً، قال زهير: كلام الله حدث وليس بمحدث، وفعل وليس بمفعول، وامتنع أن يزعم أنه خلق، ويقول: ليس بخلق ولا مخلوق، وإنه قائم بالله، ومحال أن يتكلم بالله بكلام قائم بغيره، كما يستحيل أن يتحرك بحركة قائمة بغيره، وكذلك يقول في إرادة الله ومحبته وبغضه: إن ذلك أجمع قائم بالله، وقال الأشعري: (وبلغني عن بعض المتفقهة أنه كان يقول: إن الله لم يزل متكلماً، بمعنى أنه يزل قادراً على الكلام، ويقول: إن كلام الله محدث غير مخلوق). يُنظر درء تعارض العقل والنقل، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (ت 728هـ)، تحقيق محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، ط2، 1411 هـ/ 1991م، ج2، ص: 333.

35 - الإنصاف في مسائل الخلاف، ج2، ص: 135.

- 36 - تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملّي، أبو جعفر الطبري (ت 310هـ)، دار التراث بيروت، ط2، 1387 هـ، ج8، ص: 633.
- 37 - صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (ت 764هـ)، يُنظر الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث بيروت، 1420هـ/ 2000م، ج27، ص: 245.
- 38 - هو محمد بن هارون أمير المؤمنين أبو إسحاق المعتصم بن الرشيد بن المهدي ابن المنصور ولد سنة 180هـ، وأمه أم ولد اسمها ماردة روى عن أبيه وعن أخيه المأمون وروى عنه إسحاق الموصلي وحمدون بن إسماعيل وآخرون بويغ بعد المأمون بعهد منه إليه في 14 شهر رجب سنة 218هـ، وكان أبيض أصهب اللحية طويلها ربع القامة مشرب اللون ذا شجاعة وقوة وهمة عالية، وكان يقال له المثنى لأنه ثامن خلفاء بني العباس، وكان من أهيب الخلفاء وامتحن العلماء بخلق القرآن وقال أحمد بن أبي دؤاد كان المعتصم يخرج يده إلي ويقول عض ساعدي بأكثر قوتك فأقول ما تطيب نفسي فيقول إنه لا يضرنني فأروم ذلك فإذا هو لا تعمل فيه الأسننة فضلا عن الأسنان، ومات ليلة الخميس لإحدى عشرة ليلة بقيت من ربيع الأول سنة 227هـ. يُنظر الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي، ج5، ص: 94-95.
- 39 - هو هارون بن محمد بن هارون بن محمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس أمير المؤمنين الواصل بالله بن المعتصم بن الرشيد بن المهدي بن المنصور أبو جعفر وأبو القاسم كناه بها المأمون وأمه أم ولد، وكان أبيض إلى الصفرة حسن الوجه جميل الطلعة جسيما في عينه اليمنى نكتة بياض مولده يوم الاثنين لعشر بقين من شعبان سنة 190هـ، بويغ وله بسر من رأى يوم الخميس 11 ليلة بقيت من شهر ربيع الأول سنة 227هـ يوم مات المعتصم بالله وله يومئذ 30 سنة، وتوفي بسر من رأى لخمس بقين من ذي الحجة سنة 232هـ وصلّى عليه القاضي أحمد بن أبي داود ودفن بالهرواني. يُنظر الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي، ج27، ص: 120.
- 40 - أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (ت 463هـ)، تاريخ بغداد وذيوله، دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 1417 هـ، ج4، ص: 365.

- 41 - جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت 597هـ)، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1412 هـ/1992م، ج11، ص:207.
- 42 - نفسه، ج15، ص:125-126.
- 43 - خلق القرآن، الرازي، 70-71.
- 44 - سورة التوبة، الآية:6.
- 45 - سورة يس، الآية:1-2.
- 46 - سورة الفاتحة، الآية:1.
- 47 - سورة الناس، الآية:1.
- 48 - سورة الفاتحة، الآية:1.
- 49 - سورة الفلق، الآية:1.
- 50 - سورة الفاتحة، الآية:1.
- 51 - سورة الإخلاص، الآية:1.
- 52 - سورة التوبة، الآية:51.
- 53 - تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي (ت 771هـ)، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: د. محمود محمد الطناحي، د. عبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، 1413هـ، ج2، ص:29.
- 54 - حسين معتوق، الإنصاف في مسائل الخلاف، ج2، ص:159.
- 55 - هذا التقسيم أخذه الأشعري من عبد الله بن كلاب، إلا أنه اختلف عنه في بعض النقاط، فقد اعتبر ابن كلاب كلام الله أزلي لكن الأوامر والنواهي محدثة لأنها لا تنشأ إلا بوجود المأمور، في حين صنف الأشعري الأوامر والنواهي في الكلام الأزلي، وللمزيد حول الموضوع ينظر: النزعات المادية، حسين مروة، بيروت 1978م، ج2، ص:115.
- 56 - حسين مروة، النزعات المادية، ج2، ص:115.

- 57 - محمد حسين محاسنة، أضواء على تاريخ العلوم عند المسلمين، دار الكتاب الجامعي الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2000/2001م، ص:124.
- 58 - نفسه، ص:160.
- 59 - الإبانة في أصول الديانة، أبو الحسن الأشعري، الباب الثاني: "الكلام في أن القرآن الكريم كلام الله تعالى غير مخلوق" تحقيق: فوفيه حسين محمود، جامعة شمس القاهرة، ط1، 1397هـ/1977م، ص:63-84.
- 60 - محمد حسين محاسنة، أضواء على تاريخ العلوم عند المسلمين، ص:124.
- 61 - ، محمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية ، ج1، ص:167.